تيسير الكريم الجليل
بشرح حديث سؤال جبريل

إعداد الدكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحُمَيدي
الأستاذ في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى
والمدرس بالمسجد الحرام

ح

عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
تيسير الكريم الجليل بشرح حديث سؤال جبريل . /عبدالعزيز
عبد الله الحميدي .- مكة المكرمة ، ١٤٣٤هـ
٨٦ ص ؛ .. سم
ردمك : ٥-٣٤٠١-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- الإيمان ٢ – التوحيد – الحديث – شرح أ. العنوان
ديوي ٣٤٠ ١٤٣٤/٥٧٠٨

رقم الإيداع : ١٤٣٤/٥٧٠٨
ردمك: ٥-٢٤٠١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ/٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ..

وبعد : فإن هذا حديث عظيم جليل ، ذكر فيه النبي ﷺ أمور الدين الكلية ، ومن هذه الأمور الكلية تتفرع جميع أمور الدين .

ويؤخذ من جمع أمور الدين الكلية الثلاثة المذكورة في هذا الحديث توجيه المسلمين إلى التوازن في فهم الإسلام وتطبيقه ، بحيث لا يكون الاهتمام بجانب من جوانب الدين على حساب الإخلال بالجوانب الأخرى ، فإن هذا الحديث قد اشتمل على جوانب الإسلام العلمية وجوانبه العملية، فالذين يهتمون بجوانب الإسلام العلمية ويقصِّرون في

جوانبه العملية .. والذين يهتمون بجوانبه العملية ويقصرون في جوانبه العلمية لم يفهموا هذا الحديث حق الفهم ولم يطبقوا ما جاء فيه حق التطبيق .

مكة المكرمة

١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

حديث سؤال جبريل عليه السلام

بين النبي ﷺ أمور الدين في حديث سؤال جبريل عليه السلام الذي أخرجه الإمام مسلم من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ :الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً،

قال: صدقت، قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال:أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال :أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق فلبثت مليّـا، ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم

يعلمكم دينكم»[1].

وأخرجه الإمام البخاري وذكر نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه «ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، في خمسٍ لا يعلمهن إلا الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[2] [لقمان: ٣٤].

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم ٨ (ص٣٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان رقم ٥٠ (١/ ١١٤) و٤٧٧٧ (٨/ ٥١٣).

فأمور الدين إذًا هي هذه الثلاثة :

الأول: الإسلام، وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث أصول الإسلام، ويندرج تحتها فروع بيَّنها العلماء في كتب التوحيد والفقه.

الثاني: الإيمان الذي أصبح فيما بعد يسمى بالتوحيد ثم بالعقيدة، وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أصول الإيمان، ويندرج تحت هذه الأصول فروع بيَّنها العلماء في كتب التوحيد.

الثالث: الإحسان، وقد بين النبي ﷺ الأصل العام للإحسان، ويندرج تحته فروع بينها العلماء في كتب الدعوة والتربية.

الأمر الأول: الإسلام

وهو يتضمن أركان الإسلام الخمسة التي يقوم عليها بناؤه كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»[1].

فهذا الحديث يبين لنا أن هذه الأركان الخمسة هي الأساس الذي قام عليه بناء الإسلام، ولكونها الأساس يجب أن تأخذ قدرًا من الاهتمام أكبر مما بني

(١) صحيح البخاري، رقم ٨، كتاب الإيمان (١/ ٤٩).
صحيح مسلم، رقم ١٦/ ٢١، كتاب الإيمان (ص ٤٥).

عليها من أحكام وتكاليف.

ونجد من اهتمام النبي ﷺ بهذه الأركان أنه كان يجيب بها السائلين عن الإسلام أو عن العمل الصالح الذي يؤهل لدخول الجنة والنجاة من النار، سواء كان السائل من المبتدئين في فهم الإسلام كالأعراب الوافدين إلى المدينة أو من علماء الصحابة.

فمن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه قال: «جاء رجل من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دويَّ صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوَّع، قال: وصيام شهر

رمضان، قال: هل عليَّ غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوَّع، قال وذَكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوَّع، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرجل إن صدق»[1].

وظاهرٌ من سياق الخبر أن السائل كان مسلمًا، ولذلك لم يذكر له رسول الله ﷺ الشهادتين، أما عدم ذكر الركن الخامس وهو الحج فذلك لكونه لم يكن

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٦، كتاب الإيمان باب ٣٤ (١/ ١٠٦). صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب ٢ (١/ ٤٠ رقم ١١).

مفروضًا آنذاك كما ذكره أهل العلم[1].

وفي حكم رسول الله ﷺ لهذا الرجل، بالفلاح إذا هو أقام أركان الإسلام دليل عل أهمية هذه الأركان وأنها سبب للفوز برضوان الله تعالى والجنة إذا أقيمت على وجهها المشروع.

وكما أن النبي ﷺ أجاب بهذا الجواب رجلاً مبتدئًا في فهم الإسلام فإنه قد أجاب بمثل ذلك رجلاً معدودًا من أعلم الصحابة بالإسلام وهو معاذ ابن جبل رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين، وذلك حينما قال: «يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: لقد سألتني عن عظيم وإنه

(١) فتح الباري (١/ ١٠٧).

ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» الحديث، أخرجه أبو عبدالله أحمد بن حنبل وأبو عيسى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح وصححه الشيخ الألباني[1].

فقد أجاب النبي ﷺ بذكر ما يشمل شرائع الإسلام واجتناب ما ينقض ذلك بقوله «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا»، ثم خص بالذكر أركان الإسلام العملية مما يدل على أنها أهم من غيرها.

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٢٣١)، سنن الترمذي، رقم (٢٦١٦) كتاب الإيمان باب ٨ ، صحيح سنن الترمذي رقم (٢١١٠ – ٢٧٦٢).

لقد كان النبي ﷺ في تربيته وتوجيهه لأصحابه يعطي هذه الأركان القسط الأكبر من الأهمية لكونها الأساس الذي تقوم عليه كل التكاليف الأخرى، ولكونها الشريعة الثابتة والمطلوبة من المسلمين في كل زمان ومكان، بينما كان يعطي تكاليف الإسلام الأخرى حجمها من الأهمية، وذلك كأمور المعاملات بين المسلمين وشؤون السياسة والجهاد ونقد الجاهلية.

فلم يكن رسول الله ﷺ يجعل دعوة الإسلام ردود فعل لهجمات الأعداء، ولم يكن يشغل أذهان المسلمين في أكثر أوقاتهم بنقد الجاهلية وتتبع حركات أهلها، وإن كان قد اهتم بهذا الجانب ولم يُغفله، ولكنه

أعطاه حجمه المناسب من الأهمية، ولم يجعله الأساس الذي يقوم عليه الدين.

لقد قامت تربية النبي ﷺ على التوازن الدقيق المحكم بين تكاليف الإسلام حسب ما لكل واحد منها من الأهمية، فبينما نجد الصحابة رضي الله عنهم مشمِّرين عن ساعد الجد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى وإقامة حكم الإسلام في كل شؤون الحياة نجدهم متفوقين غاية التفوق في جانب الشعائر التعبدية .. من الصلاة والزكاة والصيام والحج، فالناظر إليهم في الباب الأول يظن أن الدين عندهم هو الانطلاق في عمارة الأرض على قواعد الإسلام .. من إصلاح المجتمع

وإقامة دولة الإسلام والقضاء على دول الكفر، بينما إذا رجع إلى حياتهم في الباب الثاني يجد أنهم من كثرة أدائهم الشعائر التعبدية كأنهم قد تفرغوا لهذه العبادات، ولكنه يلاحظ من اهتمامهم الدائم بهذه الشعائر أن الاهتمام بتطبيق أركان الإسلام على الوجه الأكمل يأخذ القسط الأكبر من اهتمامهم الدائم.

بينما نجد بعض أهل الصلاح والإصلاح في العصور التي تلت عصر الصحابة يفقدون بعض التوازن في توجههم نحو الاستقامة والأعمال الصالحة.

فأحيانًا يبالغون في التركيز على بعض الشعائر التعبدية في مجال النوافل كالصلاة والصيام، فيصلون

الليل كله ويصومون الدهر، وهذا ــ مع مخالفته للسنة النبوية حيث نهى رسول الله ﷺ عن قيام الليل كله وعن صيام الدهر ـــ فإنه يخل بالتوازن في تطبيق الإسلام، حيث يحمل على التفريط في تكاليف أخرى من الإسلام كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله تعالى، والسعي لإقامة دولة الإسلام وحمايتها، وما يعدُّ من مكملات ذلك كدراسة واقع المسلمين وواقع الجاهلية المعاصرة.

وأحيانًا يكون الاهتمام منصرفًا إلى تصحيح المنهج العلمي أكثر مما هو منصرف إلى التطبيق العملي، وكان مبعث ذلك غالبًا الرد على انحرافات بعض المسلمين الذين خالفوا المنهج الإسلامي في

بعض الأمور العلمية وخاصة في قضايا العقيدة، فأصبحت هذه القضايا هي الأمور المهمة في حياة كثير من العلماء وطلاب العلم، وأثَّر ذلك تأثيرًا بالغًا على الجانب التربوي الذي من أهم دعائمه تقرير أركان الإسلام ودراستها دراسة واعية وتربية أبناء الأمة الإسلامية بها.

وما تزال هذه النظرة قائمة في أذهان بعض طلاب العلم حتى في عصرنا الحاضر على الرغم من أن كثيرًا من تلك المذاهب المنحرفة قد اندرست مع الزمن ولم يعُدْ لها وجود بارز في هذا العصر.

ونظرًا لما حدث في العصر الحاضر من هجوم أعداء الإسلام على ديار المسلمين وقيامهم باستعباد

أكثر الشعوب الإسلامية وإحلال القوانين الكفرية التي وضعها البشر محل النظام الإسلامي الذي كانت بلاد الإسلام تحكم به .. نظرًا لذلك فقد هب الدعاة إلى الله تعالى لإيقاظ الأمة الإسلامية وتبصيرها بحقيقة أعدائها ورصد الانحرافات العلمية والعملية التي وقع فيها المسلمون، ومن أبرز ذلك الحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وعدم وضوح عقيدة الولاء والبراء، كما قاموا بفضح الحضارة الغربية التي قام عليها أولئك الأعداء.

وقد أثمرت جهود هؤلاء الدعاة المخلصين في توعية أفراد الأمة الإسلامية وإنقاذها من مخطط كفري أثيم كان يحاك ضدها حيث انتشر الوعي

الإسلامي في كل بلاد الإسلام، وأصبح المسلمون في غالب شعوبهم ينظرون إلى أولئك الأعداء نظرة الاحتقار والكراهية.

ولكن في خِضَمِّ هذا الموج المندفع والتيار القوي المتحمس نحو الدعوة إلى سيادة المسلمين وقيام دولة الإسلام حصل من بعض المتأثرين بهذه الدعوة نوع من الإهمال للجانب التربوي الذي يقوم أساسًا على فهم أركان الإسلام والاهتمام البالغ بتطبيقها وما يترتب عليها من تكاليف، فصار بعض الدعاة ينظر إلى هذه الأركان وسائر الشعائر التعبدية نظرة ثانوية من ناحية الأهمية وإن كانوا لا يصرحون بذلك، ولكن المتأمل في دعوتهم واهتمامهم يشعر بأنهم

يعرضون قضايا الإسلام الأخرى مثل المطالبة بقيام دولة الإسلام ونقد الجاهلية المعاصرة على أنها هي القضايا الأساسية للدعوة الإسلامية، والاهتمام بهذه القضايا مطلوب شرعًا، بل إن إقامة دولة الإسلام من أصول توحيد الألوهية، والدعوة إلى هذه القضايا هو عين الحكمة في الدعوة، لأن الدعاة - والحال هذه- يعالجون قضايا واقعة من الانحراف عن المنهج السليم ويصلحون فسادًا قائمًا، بخلاف من يشغلون أنفسهم بمقاومة انحرافات لا توجد غالبًا إلا في الكتب المتوارثة، أو توجد في المجتمع ولكن بصورة لا تؤثر إلا على فئة محدودة، فالذين يقاومون الجاهلية المعاصرة ويصلحون الفساد القائم الذي يعمل

بحيوية وقوة ويؤثر على مجرى حياة المجتمع الإسلامي هم الذين وفقوا إلى المنهج الصحيح، إلا أن المطلوب منهم أن لا يُغرِقوا في معالجة هذه الجوانب على حساب أساسيات الإسلام، فإن المبالغة في الجوانب الفكرية تكون دائمًا على حساب النواحي التربوية، فينتج عن ذلك تطور في الفكر وتأخر في السلوك وضعف في الوازع الديني، والتوازن المطلوب في ذلك لا يتم إلا عن طريق الاهتمام الكامل بالشعائر التعبدية التي إذا تم القيام بها على الوجه الأكمل فإنها تقوي الإيمان وتعمق الصلة بالله عز وجل.

وليس موضوع هذا الكتاب مما يحتمل الكلام

بالتفصيل على أركان الإسلام، وقد بين العلماء رحمهم الله تعالى ما يتعلق بهذه الأركان بيانًا كافيًا في كتب التوحيد والفقه، غير أنه من المهم بيان أمور تتعلق بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» حيث إن كثيرًا من المسلمين ينطقون بها في عباداتهم وأذكارهم، وقد لا يستفيدون منها الفائدة الكاملة.

فلا بد لمن نطق بهذه الكلمة من ثلاثة أمور :

الأول - فهم معناها: فلا بد أن يفهم من شهد أن لا إله إلا الله أن هذه الشهادة تنفي شرعية عبادة غير الله تعالى بأي نوع من أنواع العبادة ، وتثبت العبادة لله سبحانه وحده على المنهج الذي بينه رسول الله ﷺ .

الثاني – العمل بمقتضاها: وهو الالتزام الكامل بالتكاليف الشرعية والاستقامة على ذلك، وبهذا نعلم أن هذه الكلمة تتضمن الدين كله، ولذلك جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بوعد من قالها مخلصًا بدخول الجنة والنجاة من النار مثل قوله «لن يوافي عبد يوم القيامة يقول لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله إلا حرم الله عليه النار»[1].

الثالث – اجتناب ما يناقضها : وذلك باجتناب الوقوع في الشرك، سواء في ذلك الشرك الأكبر أو الأصغر، الخفي أو الظاهر، وكذلك المعاصي كبيرها

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٤٢٣، كتاب الرقاق باب ٦ (١١/ ٢٤١).

وصغيرها.

وقد تكون هذه المخالفات مناقضة لأصل كلمة التوحيد، وذلك بالوقوع في الشرك الأكبر المخرج من الملة، وقد تكون مناقضة لكمال التوحيد الواجب وذلك بارتكاب ما دون الشرك الأكبر.

وبهذا نعلم أن مجرد النطق بهذه الكلمة لا ينفع إلا إذا قارنه فهم معناها والعمل بمقتضاها واجتناب ما يناقضها، وعلى قدر تطبيق المسلم لهذه الأمور تكون استفادته من النطق بها.

إن الاستفادة من النطق بهذه الكلمة أو عدم الاستفادة أشبه شيء باستفادة المريض من الطبيب المعالج أو عدم استفادته منه، فإذا أعطاه الطبيب

تعليمات يسير عليها في أخذ العلاج وحذره من المحاذير التي تناقض هذا العلاج فإنْ هو أخذ بذلك استفاد من الدواء، وإن قصر في أخذ هذه التعليمات أو وقع في المحاذير التي حذره الطبيب منها فقد لا يستفيد من العلاج أصلاً، وقد لا يستفيد الفائدة الكاملة، وقد يلحقه ضرر حسب مخالفته التي وقع فيها.

فكذلك من ينطق بكلمة التوحيد ولا يعمل بمقتضاها أو يرتكب ما يناقضها فإنه لا يستفيد من النطق بها أصلاً أو لا يستفيد الفائدة الكاملة على قدر مخالفته.

وكذلك شهادة أن محمدًا رسول الله، فلابد من

فهم معناها، بأن يفهم المسلم أن محمدًا ﷺ رسول مبلغ عن الله تعالى وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وأن يعمل بمقتضاها، وذلك بأن يجعل رسول الله ﷺ إمامًا له وأن يطيعه في جميع أوامره وينتهي عن جميع نواهيه، وأن يقتدي به في جميع أفعاله، وأن يحبه أعظم من محبته لكل أحد كما جاء في قوله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» أخرجه الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه[1]، وكما جاء في الحديث الذي أخرجه أبو عبد الله البخاري من

(١) صحيح البخاري، رقم ١٥ ، الإيمان (١/ ٥٨).
صحيح مسلم، رقم ٤٤/ ٧٠، الإيمان (ص٦٧).

حديث عبد الله بن هشام ﵁ قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر»[1].

ففي هذين الحديثين بيان أن محبة رسول الله ﷺ يجب أن تكون أعلى من محبة جميع الناس حتى النفس والوالد والولد.

وقول عمر ﵁ «لأنت أحب إلي من كل شيء

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٦٣٢، كتاب الأيمان والنذور، باب ٣ (١١/ ٥٢٣).

إلا نفسي» ليس على ظاهره، فليس المراد أنه كان يحب نفسه أكثر من حبه رسول الله ﷺ، فهو الذي يفديه بنفسه وما ملكت يداه، أوَ ليس هو الذي قد جعل نفسه كالسياف بين يدي رسول الله ﷺ يحميه ويدفع عنه أذى المتطاولين؟! وهو بهذا يُعرِّض نفسه للقتل، وهذا أوضح الأدلة على أنه كان يقدمه على نفسه، وإنما قال ذلك عمر – والله أعلم – لإفادة الأمة بأمر لم يذكره رسول الله ﷺ، وخشي أن يكون مجهولاً عند بعض المسلمين فاستفسر عنه من باب المعرفة والعلم، وليكون التطبيق أداء لواجب معلوم، فكم هي الأيادي البيضاء التي قدمها عمر رضي الله عنه لهذه الأمة في مجالات العلم والإيمان والعمل الصالح!!

كما أنه لا بد أن يجتنب ما يناقض هذه الشهادة، وذلك مثل أن يأخذ الإنسان الهدى من غير رسول الله ﷺ، كما أخذَتْ بعض الفرق الضالة بأقوال فلاسفة اليونان في بعض أمور العقيدة.

فإذا آمن المسلم بالشهادتين بهذا المستوى الرفيع من الفهم والتطبيق فإنه يكون قوي الإيمان صحيح الفكر مستقيم السلوك،وبذلك فإنه يكون جنديًّا عاملاً في عمارة الأرض بطاعة الله تعالى في حال السلم، مجاهدًا قويـًّا في حال الحرب،ومثل هذا المسلم لا تزعزعه الشدائد، ولا تؤثر فيه الشبهات والفتن، لأنه يكون مستسلمًا لله جل وعلا، بحيث لا يكون في قلبه غير إيمانه به تعالى، يلتمس رضوانه ولو سخط

الناس عليه،من كانوا وأينما كانوا، ويجتنب سخطه ولو رضي الناس عنه من كانوا وأينما كانوا، فإذا تجرد قلبه لذلك أصبح خاليًا من الشوائب، وتوحَّد المصدر الدافع للحركة والعمل، وبذلك يقوم المسلم بالأعاجيب من العمل والبذل في سبيل الإسلام، عندما يصفو تفكيره وتتوحد مشاعره.

وإذا لم يتوافر هذا الإيمان القوي فإن المسلمين سيفقدون أفرادًا وجماعات لمجرد فتنة عرضت سواء في ذلك فتنة التخويف أو فتنة التأليف.

ومن هذا كان الموحدون هم أخطر الناس على أهل الباطل، لأنهم لا يتنازلون عن عقيدتهم، فإذا حاول المبطلون إغراءهم فإن الدنيا بأسرها لا تعدل في نظرهم

لحظة من نعيم الآخرة،وإن حاولوا تخويفهم فإنهم يوقنون بأن عذاب الله تعالى أشد وأبقى فهم لن يفضلوا الأدنى على الأعلى،ولن ينقذوا أنفسهم من بأس خفيف ليوقعوها في بأس أشد وأنكى.

وهذه العقيدة القوية الصلبة هي التي تضمن المستقبل القوي لسيادة الإسلام.

والإسلام يشمل الدين كله، كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي عنه قال: «قالوا: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1] وكما جاء في حديث عبد الله بن عمرو

(١) صحيح البخاري، رقم ١١ ، الإيمان باب ٥ (١/ ٥٤) ، صحيح مسلم، الإيمان باب ١٤ (١/ ٦٦ رقم ٤٢) .

ابن العاص رضي الله عنهما «أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[1].

ولكن النبي ﷺ قد اقتصر في حديث سؤال جبريل عليه السلام على بيان أركان الإسلام لبيان أهميتها في الدين.

هذا وإن من أهم الأمور التي يتضمنها هذا الحديث بيان أن الحكم بما أنزل الله تعالى داخل في مفهوم كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » لأن معناها لا معبود بحقٍّ سوى الله تعالى ، والحكم بما أنزل الله من

(١) صحيح البخاري، الإيمان ، باب ٦(١/ ٥٥ رقم ١٢)، صحيح مسلم، المصدر السابق رقم (٣٩).

عبادته ، وقد وردت بذلك أدلة كثيرة منها قول الله تعالى عن أهل الكتاب ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] أي اتخذ اليهود أحبارهم وهم العلماء واتخذ النصارى رهبانهم وهم العبَّاد المنقطعون للعبادة أربابًا من دون الله تعالى ، وقد بين النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم إنما هي في طاعتهم في معصية الله سبحانه وذلك فيما أخرجه الإمام الترمذي والطبري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «ياعدي اطرح هذا الوثن من عنقك » قال : فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة فقرأ هذه الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن

دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: قلت: يارسول الله إنا لسنا نعبدهم ، فقال : « أليس يحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه ويحلُّون ما حرم الله فتحلُّونه ؟ » قال : قلت : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم » [1] .

وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية و الشيخ الألباني رحمهما الله [2] .

فهؤلاء اليهود والنصارى قد وقعوا في شرك الطاعة ، وليس هذا خاصا باليهود والنصارى ، بل إن كل من أطاع غيره في تحليل ماحرم الله وتحريم ما

(١) سنن الترمذي (٥/ ٢٧٨ رقم ٣٠٩٥) ، تفسير الطبري ١٠/ ١١٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٧ ، غاية المرام / ٦ .

أحل الله فقد اتخذ ذلك المطاع ربا من دون الله تعالى ووقع في شرك الطاعة .

فــهــذه الآية تفيد بأن مَن غيَّر شرع الله تعالى فأحل الحرام وحرم الحلال فإنه قد ادعى الربوبية لنفسه من دون الله تعالى فهو من جملة الطواغيت الذين يدعون إلى عبادة أنفسهم ، والمراد ما أجمع العلماء على تحريمه أو تحليله ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : والإنـسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحــلال المجمع عليه أو بدَّل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء [1] .

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٦٧ .

وقول عدي بن حاتم « إنا لسنا نعبدهم » مبني على فهمه بأن الشرك هو شرك العبادة التي تشبه عبادة الأصنام ، فأبان له النبي ﷺ أن هناك نوعا آخر من العبادة وهو شرك الطاعة ، حيث أطاعوا أحبارهم ورهبانهم في معصية الله تعالى وإنما تكون طاعة هؤلاء العلماء عبادة لهم إذا علم الأتباع أن أولئك العلماء قد أحلوا ماحرم الله تعالى أو حرموا ما أحله ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا – حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله – يكونون على وجهين : أحدهما أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ،

فيعتقدون تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر،وقد جعله الله ورسوله شركا–وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم–فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ماقاله الله ورسوله مشركا مثل هؤلاء.

والثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتا لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب[1] .

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٧٠ .

وبهذا نعلم أن طاعة غير الله تعالى في معصيته لا تعدُّ شركا في العبادة ولا يطلق على من أطاع غير الله في معصيته بأنه قد عبده إلا إذا كان يعلم بأن ذلك الطاغوت الذي غير شرع الله قد أحل ما حرم الله سبحانه مما أجمع العلماء على تحريمه أو حرم ما أحل الله عز وجل مما أجمع العلماء على تحليله .

وأشد نكارة مما قام به الأحبار والرهبان من تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحله ما قام به ويقوم المشرِّعون الذين يَسنُّون القوانين الحقوقية لتكون مرجعا للتحاكم بين الناس، فهؤلاء قد ادَّعوا الربوبية لأنفسهم وإن لم يقولوا ذلك ؛ لأن حق التشريع خاص بالله تعالى وحده ، والذين يأخذون بهذه

القوانين ويحكمون بها بين الناس قد اتخذوا أولئك المشرِّعين أربابًا من دون الله تعالى .

هذا وقد ورد عن رسول الله ﷺ ما يفيد بأن الحكم بما أنزل الله أصل من أصول الإسلام وذلك فيما رواه الإمام أحمد من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « لَتُنقضنَّ عُرَى الإسلام ؛ عروةً عروة ؛ فكلما انتقضتْ عروة تشبث الناس باللتي تليها ، وأولهن نقضًا الحكم وآخرهن نقضًا الصلاة »[1] .

وصححه الشيخ الألباني[2] .

---

(1) المسند (٥/ ٢٥١) .

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ٤٩٥١) .

ففي هذا الحديث قَرَن النبي ﷺ بين الصلاة والحكم بما أنزل الله فجعلهما عروتين من عُرَى الإسلام،وفي هذا بيان لأهمية الحكم بماأنزل الله تعالى.

وقد استمر الحكم بما أنزل الله في البلدان الإسلامية إلى هذا العصر الحديث الذي هجم فيه أعداء الإسلام على البلاد الإسلامية فاستعبدوا أكثرها وألغوا المحاكم الشرعية وأبدلوها بالمحاكم القانونية .

وعلى اعتبار أن الحكم بما أنزل الله تعالى يُعدُّ عروة من عُرى الإسلام فإن المجتمعات الإسلامية التي لا تطبَّق فيها أحكام الشريعة الإسلامية يُعدُّ إسلامها ناقصا ، لأنها قد فقدتْ عروة من عرى الإسلام .

الأمر الثاني الإيمان

الإيمان هو التصديق المقرون بالثقة واليقين وقد فسر النبي ﷺ الإيمان في هذا الحديث باعتقاد القلب وذكر أركان الإيمان الستة.

والإيمان شامل للقول والعمل، وإنما لم يذكر ذلك النبي ﷺ لأنه ذكره في بيان الإسلام.

ومن هذا الحديث وأمثاله استنتج العلماء أن الإسلام والإيمان إذا ذُكرا معًا ينصرف الإسلام إلى الأقوال والأفعال الظاهرة وينصرف الإيمان إلى اعتقاد القلب.

وعلى هذا يُحمل التفريق بينهما في قول الله تعالى ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات:١٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: يقول الله تعالى منكرًا على الأعراب الذين أوَّل ما دخلوا في الإسلام ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعدُ، قال: وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام، حين سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه.

إلى أن قال: فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم

مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فأُدِّبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي وقتادة[1].

أما حينما يُذكر الإسلام وحده فإنه يدخل فيه الإيمان ضمنًا، لأن العمل بدون اعتقاد صحيح لا يكون مقبولاً وصاحبه يكون من المنافقين الذين يظهرون الإسلام بالأفعال الظاهرة ويبطنون الكفر.

ومما يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل من حديث عمرو بن عبسة ﷺ قال قال رجل: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: أن يُسلم قلبك لله عز

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٤).

وجل وأن يَسلم المسلمون من لسانك ويدك، قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، قال: وما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ... الحديث[1].

فجعل النبي ﷺ الإيمان أفضل الإسلام.

وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، لأن العمل بالتكاليف الشرعية هو المظهر الذي يدل على صحة الإيمان، حيث إنها من أوامر الله تعالى ونواهيه،

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١١٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله ثقات (١/ ٥٩) ، وقال المنذري : رواه أحمد بإسناد صحيح ورواته محتج بهم في الصحيح – الترغيب والترهيب ٢/ ١٩٦٥- .

فمن لم يستقم على ذلك لم يكن مؤمنًا حقًّا.

ومما يدل على ذلك قول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال:٢-٣].

وكذلك ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون- أو قال : بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[(١)] .

---

(١) صحيح مسلم (٥٨/٣٥)، الإيمان (ص٦٣) صحيح البخاري، رقم ٩، الإيمان (١/ ٥١).

وقد اقتصر النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام في بيان الإيمان على هذه الأركان الستة، وهذا يدل على أهميتها في أمور الدين.

فالإيمان بالله تعالى أساس في الإيمان كالشهادتين بالنسبة للإسلام، فلا يكون الإنسان داخلاً في هذا الدين إلا إذا آمن بالله تعالى، ولا بد أن يصاحبه هذا الإيمان حتى تُختم حياته عليه.

وللإيمان بالله تعالى آثار تربوية عالية، يمكن التمثيل لها بما يأتي:

١- سعة الأفق وبعد النظر، فالمؤمن بالله جل وعلا يستمد أفقه الواسع ونظراته البعيدة من سعة ملك الله سبحانه وهيمنته على الكون كله، والإنسان

مفطور على الشعور بالنقص أمام من هو أقوى منه أو ما يستفيد منه في حياته، وقديمًا عبد بعض الناس الشمس وبعض الكواكب لشعورهم بضخامتها واستفادتهم منها.

وفي هذا العصر الذي ارتقى فيه العقل البشري أصبح الناس لا يفكرون بتقديس المخلوقات غير العاقلة، ولكن قد ينحرف بهم الفكر إلى تقديس بعض البشر ممن يرون أن لهم فضلاً في العلم أو القوة المادية فيعظمونهم أكثر مما يعظمون الله الذي خلقهم، ويتلقون منهم المبادئ والمناهج أكثر مما يتلقون من الوحي الإلهي، وبهذا يتحول الشرك من عبادة الجمادات إلى عبادة أشخاص ومبادئ، وهذا كله

نقص في العقل وانحطاط في التفكير، لأن المخلوق مهما بلغ من العلم والإبداع لا يعدو أن يكون مخلوقًا لله تعالى، فهو بهذا لا يستحق العبادة، وما دام الإنسان قد خلق محتاجًا إلى قوة هي أعلى من قوته فمن كمال العقل والحكمة أن لا يعبد إلا الله وحده، وأن لا يخضع لقوة مخلوقة مثله.

٢- معرفة الغاية وتحديد الهدف، فالمؤمن بالله جل وعلا يعرف جيدًا أن غاية وجوده في هذه الحياة الدنيا هي عبادة الله سبحانه وعمارة الأرض بطاعته، كما يعلم مصيره بعد الموت، فلا يتحير ولا يتخبط في ظلمات الجهل.

أما الكافر فإنه لا يعرف الهدف الذي من أجله

وجد في هذه الحياة الدنيا، ولا المصير الذي سيكون عليه بعد الموت، فالكافر يقتصر نظره على الإيمان بالحياة الدنيا فيعمل لها من غير شعور بحساب ولا جزاء، أما المؤمن فإنه يؤمن بالحياة الآخرة فيعمل لها وهو موقن بالحساب والجزاء.

٣- التواضع للمؤمنين والعزة على الكافرين، كما قال الله تعالى في وصف من اختارهم للجهاد في سبيله وإعلاء كلمته ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة :٥٤] وكما قال تعالى في وصف الصحابة رضي الله عنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾[محمد : ٢٩] .

٤- الجرأة والإقدام وقوة القلب، فالمؤمن بالله

جل وعلا لا يخشى إلا الله سبحانه، ولا ترهبه كبرياء المخلوقين، ولايطأطئ رأسه أمام أحد منهم، وإن كانوا في مركز القوة، لأنه يستند إلى قوة الله العلي القدير الذي خلقه وخلق من يحاول إرهابه وإذلاله، وإذا خاض معركة فإنه لا يجبن ولا يفر، لأنه يعلم أن الآجال بيد الله جل وعلا وأن الدنيا ليست دار خلود، فمن الخير له أن يموت شهيدًا في سبيل الله تعالى.

٥- استشعار رقابة الله تعالى في جميع الأحوال، وهذا له أثره البالغ في تقويم سلوك الإنسان، حيث يشعر المؤمن أن الله جل وعلا معه يطلع عليه في سره وعلنه.

أما بقية أركان الإيمان فإنها مكملة لهذا الأساس، وقد بينها العلماء بالتفصيل في كتب التوحيد لكني أحب أن أذكر نبذة عن الركن السادس، فالإيمان بالقدر هو أن يؤمن المسلم بأن الله جل وعلا قدَّر الأشياء كلها قبل وقوعها، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، كما يؤمن بأن للعبد مشيئة وإرادة فيما يقوم به من أعمال ولكنها مترتبة على مشيئة الله جل وعلا كما قال تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

والعبد حينما يختار طريق السعادة أو طريق الشقاوة فإنما يختار أحد الطريقين بمحض اختياره وإرادته ولا علم له بما كتب الله عليه في الأزل فإن

ذلك من علم الغيب، والذي يختار طريق الشقاوة ثم يحتج بالقدر فيقول إن الله قدَّر عليّ الشقاء هو جاهل بقيمته كعبد مخلوق، حيث أدخل فكره في البحث في أمر من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، ثم يقال لهذا الذي يحتج بالقدر: لماذا لم تختر طريق السعادة؟ أليس باستطاعتك أن تسلكه كما سلكه المؤمنون؟ فسيقول: بلى، باستطاعتي ذلك، لأنه ليس هناك قوة تحول بينه وبين سلوك طريق السعادة، فيقال له: لماذا إذًا لم تسلك هذا الطريق؟ فسيقول: إن الله كتب علي سلوك طريق الشقاء وما دام الله قد كتب على بعض الناس الشقاء وعلى بعضهم السعادة وأنا ممن سلك طريق الشقاء فإن الله

قدره علي، فيقال له: وما علمك بأن الله قد قدّر عليك سلوك هذا الطريق؟

ولماذا لم تسلك طريق السعادة وتقول إن الله قد قدَّر علي سلوك هذا الطريق؟

فالقضية إذًا ليست قضية القدر الذي كتبه الله عز وجل، وإنما هي قضية الإرادة والاختيار والميول الذاتية للإنسان.

فالواجب على المؤمن أن لا ينظر إلى القدر فيما يريد أن يفعله في المستقبل، فلا يقول مثلاً: أخشى أن يكون الله قد كتب علي الإخفاق في هذا الموضوع فلا أريد أن أُقْدم عليه، لا يجوز ذلك لأن قدر الله جل وعلا من علم الغيب الذي اختص به جل شأنه، وإنما

عليه أن ينظر إلى أوامر الله تعالى ونواهيه، فينفذ أوامره ويجتنب نواهيه، والله سبحانه يهديه إلى الخير ويبعده عن كل شر، ويحميه من كل عدو إذا هو استقام على طاعته واجتناب معصيته.

أما بالنسبة للأمور التي وقعت فعلاً فعلى العبد أن يؤمن بأن كل ما أصابه من خير أو شر هو بقدر الله تعالى، فإذا أصيب بمصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، قدَرُ الله وما شاء فعل، كما قال تعالى﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[البقرة:١٥٦-١٥٧] وكما قال رسول الله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا

تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

فالإيمان بأن المصائب من قدر الله تعالى وأنها لابد أن تصيب من قدرها الله عليه يخفف على المصاب وقع المصيبة ويبعد عنه وساوس الشيطان وتوهيمه إياه بأنه لو فعل كذا وكذا لما حصل له ما أصابه من المصيبة.

(١) صحيح مسلم، رقم ٢٦٦٤، القدر، باب ٨ (ص٢٠٥٢).

الأمر الثالث الإحسان

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث: قوله «الإحسان» هو مصدر، تقول أحسن يحسن إحسانًا، ويتعدى بنفسه وبغيره، تقول أحسنت كذا إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع، والأول هو المراد لأن المقصود إتقان العبادة، وقد يُلحظ الثاني بأن المخلص مثلاً محسن بإخلاصه إلى نفسه، وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود.

قال: وأشار – يعني رسول الله ﷺ- في الجواب إلى حالتين: أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه وهو قوله «كأنك تراه» أي وهو

يراك، والثانية أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل، وهو قوله «فإنه يراك» وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته[1].

وإنه ليحسن بنا التركيز على الحالة الثانية من الحالتين اللتين ذكرهما الحافظ ابن حجر للإحسان، وهي مراقبة الله عز وجل كمال المراقبة وذلك بإحضار القلب معه في جميع الأعمال والأقوال،مع مصاحبة تعظيمه ورجاء ثوابه والخشية من عقابه.. يحسن بنا التركيز على هذه الحالة لأنها هي الوسيلة إلى بلوغ الحالة الأولى وهي مشاهدة العبد ربه جل وعلا بقلبه حتى كأنه يراه بعينه،التي هي منزلة أهل الكمال في الإحسان.

(١) فتح الباري (١/ ١٢٠).

إن مراقبة الله عز وجل في السر والعلن يتكوَّن منها اتصاف العبد بالوازع الديني الذي يجعله يتخلق بمكارم الأخلاق كالصبر والسماحة والعدل، ويتطهر من مساوئها وخاصة الأخلاق التي تغلب على كثير من الناس كالأنانية والحسد والظلم والخداع.

فالإحسان هو جوهر الدين وروحه، وبدونه لا تؤدِّي العبادات مقاصدها في تزكية النفوس وتربيتها.

إن من ثمرات الإحسان أن يكون صاحبه زاكيًا صالحًا يفعل الخير ويحث عليه، ويجتنب الشر ويحذر منه.

وإن ذكر الإحسان عقب ذكر الإسلام والإيمان يعني أنه لا بُدَّ من توافره ليكون الإيمان بأركانه

العقدية والإسلام بأركانه العملية على جانب كبير من الحيوية والتأثير على جميع سلوك المسلم في هذه الحياة.

فالإيمان الذي لا يَردع صاحبه عن فعل الكبائر لا يكون إيمانًا حيويًّا ولا مؤثرًا على السلوك، ولذلك نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن أصحاب الكبائر كما جاء في قوله «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن،ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن،ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن»أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [(١)].

---

(١) صحيح البخاري،رقم ٥٥٧٨،الأشربة (١٠/ ٣٠)،صحيح مسلم،رقم ٥٧،الإيمان (ص ٧٦).

وهذا لا يعني نفي الإيمان عنه بالكلية على مذهب أهل السنة والجماعة، وإنما يعني نفي الإيمان الحيوي المؤثر في السلوك، وهذا يفيد بأن أصحاب هذه الكبائر قد فقدوا الإحسان حيث لم يُحضروا قلوبهم مع الله تعالى ولم يشعروا برقابته عليهم ولم يتذكروا عظمته، ففقدوا بذلك الوازع الديني الذي يدفعهم إلى المحاسن ويردعهم عن المساوئ.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم شديدي الإحساس في هذا الجانب، فحينما قارن حنظلة الأُسيِّدي رضي الله عنه بين حاله عند النبي ﷺ وهو يذكِّرهم بالآخرة وحاله حينما يرجع إلى بيته أنكر الاختلاف بين الحالين فاتهم نفسه بالنفاق.

وقد أخرج خبره هذا الإمام مسلم من حديث أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأُسَيِّدي رضي الله عنه[1] قال: «لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة، قال سبحان الله ما تقول؟ قال قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يُذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّـا رأيُ عين[2] فـإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات[3] فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق

---

(١) قال أبو عثمان النهدي: وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ .

(٢) أي كأنَّا بحال من يراها بعينه.

(٣) أي انشغلنا بشؤون الدنيا من الأزواج والأولاد والأموال.

حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تُذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأيُ عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتْكم الملائكة على فرشكم وفي طُرُقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات[1].

والمراد بهذا النفاق الذي خافه حنظلة على نفسه النفاق الأصغر العملـي، وليس النفاق الأكبر

---

(1) صحيح مسلم، رقم ٢٧٥٠، كتاب التوبة، باب٣ (ص ٢١٠٦).

الاعتقادي المخرج من الملة، وإنما خاف أن يكون ذلك نفاقًا لاختلاف حاله وهو عند رسول الله ﷺ عن حاله وهو عند أهله وأولاده.

وقد أجابه النبي ﷺ ببيان حالين لحضور القلب مع الله تعالى:

الأولى: الاستمرار في ذكر الله تعالى واليوم الآخر حتى في حال التمتع بطيبات الحياة الدنيا، وهذه الحال تجعل المسلم كالملائكة عليهم السلام،لأنهم متصفون بدوام الذكر والمراقبة، ولذلك قال رسول الله ﷺ «لصافحتكم الملائكة» وقد لا يصل إلى هذه الحال إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم معصومون.

الثانية: الغفلة عن الذكر أحيانًا ثم المسارعة إلى ذلك عند تذكر رقابة الله عز وجل والدار الآخرة، وهذا الذي يحصل لسائر المؤمنين، وإنما يتفاوتون بكثرة الذكر وقلته وسرعة التذكر وبطئه.

ولقد كانت معاني الإحسان وما يترتب عليها من مقاصد سامية تعمر مجالس الصحابة رضي الله عنهم، وكانت دروسهم ومواعظهم تنطلق من إحياء هذه المعاني، وعلى يدهم تربى جيل التابعين أسمى تربية يمكن أن تتم على يد أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وبهؤلاء المحسنين وأمثالهم تقوم المجتمعات الفاضلة، ويعيش المسلمون بسعادة وأمان.

وحينما يؤدي المسلم الشعائر التعبدية بدون حضور قلب مع الله تعالى فإنه يكون قد فقد الإحسان، وبذلك يكون عمله جسمًا بلا روح، ولا يستفيد من عمله في تهذيب السلوك ولا في تنمية الوازع الديني.

وحينما يقدِّم الإنسان أعمالاً جليلة في فروض الكفاية، من التعليم والدعوة وإنكار المنكر والجهاد وهو يريد الذكر الدنيوي ولا يريد وجه الله تعالى فإنه يكون قد فقد الإحسان، ولن يكون لعمله أي بركة، ولن يترتب عليه أي نفع للمسلمين وقد خالطه عصيان الله جل وعلا.

وحينما يقوم بإجراء المعاملات التجارية

ونحوها بينه وبين الآخرين وقلبه بعيد عن الله تعالى وتذكُّر رقابته والاستعانة به فإنه لم يطبق الإحسان، وبذلك فإن معاملاته لا تكون إسلامية في الغالب، لأنه يبرز من خلال معاملته حب الذات والأنانية، فيرتكب أنواعًا من المظالم، ولو فرضنا أنه عدل في معاملته فإن ذلك عدل تجاري يقصد به فاعله كسب ثقة الآخرين، ثم إنه يطبقه عند احتياجه إليه لا خوفًا من الله عز وجل ولا رجاء لما عنده[1].

---

(١) أبلغ مثال للإحسان الخشوع في الصلاة ، وينظر في ذلك رسالة « من مقاصد الصلاة» للمؤلف.

علامات الساعة

في هذا الحديث سأل جبريل عليه السلام عن الساعة مع سؤاله عن أمور الدين الكبرى، ففي هذا إشارة إلى أهمية معرفة علامات الساعة، فإنَّ معرفتها تُنبِّه المسلمين إلى قرب زوال الدنيا، وذلك مما يحضهم على الاهتمام بأعمال الآخرة.

ولقد كان جواب النبي ﷺ ببيان علامتين من علامات الساعة الصغرى، فلماذا ذكر النبي ﷺ علامتين من علامات الساعة الصغرى ولم يذكر شيئًا من العلامات الكبرى؟!

الظاهر – والله أعلم – أن علامات الساعة الكبرى تأتي متتابعة متقاربة في الزمن بحيث لا

يستفيد من عِبَرها إلا جيل محدود بوقت قصير، أما علامات الساعة الصغرى فإنها تظهر من وقت مبكر وتمتد في زمان طويل يشمل عددًا من الأجيال فتكون العبرة بها أشمل وأكثر.

وهاتان العلامتان اللتان ذكرهما رسول الله ﷺ هما :

الأولى: «أن تلد الأمة ربَّتها»، وقد ذكر العلماء أقوالاً عديدة في المراد بهذه العلامة، ولكني سأقتصر على ذكر القول الذي رجحه الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى، وفي ذلك يقول: أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام،

فأطلق عليها ربَّها مجازًا لذلك، أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة، ومُحصَّله الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربَّى مربِّيا، والسافل عاليًا، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى: أن تصير الحفاة ملوك الأرض[1].

فهذه العلامة تشير إلى تغيرٍ ظاهر في أنماط المجتمع الإسلامي، تنقلب فيه الموازين، وتتبدل فيه القيم.

---

(١) فتح الباري (١/ ١٢٢-١٢٣).

فالمعروف في المجتمعات السوية أن السيادة في الأُسَر تكون للأب والأم وأن الأولاد من بنين وبنات ينشأون على محبة الوالدين واحترامهما وطاعتهما، ولكن حينما تتبدل الأحوال وتنقلب المفاهيم فإن الأولاد تكون لهم السيادة والطاعة على الوالدين.

ومن أسباب ذلك التغيرات التي تطرأ على المجتمع فترفع الجيل الناشئ على الجيل الراشد، وهذه التغيرات من عواملها الأساسية انتشار التعليم في الجيل الناشئ وربط المناصب الدنيوية بذلك التعليم، بحيث تكون الموارد المالية بيد البنين والبنات، ويصبح آباؤهم وأمهاتهم عالة عليهم في النفقة وتأمين مطالب الحياة.

وهذه الحالة واضحة في الأمهات مع أبنائهن وبناتهن، لأن الأمهات في المجتمع غير المتفتح نحو التعليم والعمل يكنَّ من ربات البيوت، ولا يكون بأيديهن شيء من المال، بخلاف الآباء فإنهم قد يستغنون عن أولادهم، ولهذا ذُكرت المرأة في الحديث في الرواية المشهورة.

ففي مثل هذا المجتمع تعيش الأمهات في شيء من الذلة والاستصغار لأولادهن، ويعيش الأولاد من بنين وبنات في شيء من الترفع والسيادة على أمهاتهم، لأنهم يرون أن لهم فضلاً عليهن بما يبذلونه لهن من أموالهم، وقد نسي هؤلاء الأولاد ما قدمت لهم أمهاتهم من تربية وعناء منذ ولادتهم حتى

أصبحوا في غناء عن أمهاتهم، ونسوا أن المهمة الكبرى للمرأة هي تنشئة الأجيال الصالحة.

ولا شك أن أصحاب العقول الراجحة من الأبناء والبنات يدركون عظمة هذه المهمة فيُوْلون أمهاتهم كل احترام وعناية، ولكن وجود هؤلاء لا يؤثر على شهرة تلك الظاهرة من عقوق الأولاد لأمهاتهم.

العلامة الثانية: «أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» ففي هذا وصف لأهل البادية بخشونة العيش والفقر، وأنهم قرب قيام الساعة يتحولون من البادية إلى الحاضرة، ويتنافسون في بناء البيوت.

وفي العصر الحاضر حدث هذا الأمر في الوقت نفسه الذي جرت فيه الظاهرة السابقة للعلامة الأولى، فقد تحول أكثر أهل البادية إلى القرى والمدن، وتنافسوا في بناء البيوت، وتحقيق أنماط الحياة التي توجد عند أهل الحضارة.

ولكن هذا التحول ليس جديدًا في حياة المسلمين، فقد تحول الأعراب في عهد الخلفاء الراشدين إلى المدن أيام الفتوح، واتخذوا بيوت الطين بدلاً من بيوت الشعر، والظاهرة التي تعدُّ علامة للساعة لابد أن تكون جديدة مستغربة، وقد جاء في رواية أبي عبد الله البخاري «وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها» وقال الحافظ ابن

حجر العسقلاني: زاد الإسماعيلي في روايته «الصم البكم» قال: وقيل لهم ذلك مبالغة في وصفهم بالجهل، أي لم يستعملوا أسماعهم ولا أبصارهم في الشيء من أمر دينهم، وإن كانت حواسهم سليمة[1].

ولقد ذكر رسول الله ﷺ أن من علامات الساعة إسناد الأمر إلى غير أهله وتَولِّي غير الأكفاء أمور الأمة.

ومن ذلك قوله ﷺ «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2].

---

(١) فتح الباري (١/ ١٢٣).

(٢) رواه البخاري رقم ٥٩ و ٦٤٩٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لُكَع بن لكع»[1].

وقوله «بين يدي الساعة سنون خداعة، يُتَّهم فيها الأمين ويؤتمن فيها المتهم، ويَنطق فيها الرويبضة، قالوا: وما الرويبضة؟ قال: السفيه ينطق في أمر العامة»[2].

وقوله «إن من أشراط الساعة أن يوضع

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٩)، والترمذي في سننه رقم ٢٢٠٩وحسنه، وابن حبان في صحيحه، رقم ٦٧٢١ ، واللكع هو الصغير في العلم والعقل .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٢٠)، وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٨٤).

الأخيار ويُرفع الأشرار»[1].

وإن من مقاصد هذه الأحاديث أن الناس الذين لا يُؤبَه لهم وليس لهم في المجتمع مكانة ولا شهرة يرتفعون فجأة ليكونوا سادة الأمة والمتحكمين في حاضرها ومستقبلها.

والمعروف في المجتمعات السوية أن السيادة في المجتمع تتكوَّن ببطء وتؤدة، وأن لها مقومات أخلاقية لابد أن تتوافر في الأفراد والأسر التي تتطلع للسيادة، وذلك كالكرم والشهامة والوفاء والأمانة وبذل

---

(١) المستدرك (٤/ ٥٥٤-٥٥٥) وصححه الحاكم وأقره الذهبي. ورواه الطبراني، ذكره الهيثمي وقال: ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٦).

المعروف، فيصبح الناس ينظرون إلى أولئك البارزين بالمقوِّمات الأخلاقية على أنهم يتفوقون عليهم بأمور لا يستطيعون بلوغها، فيعترفون لهم بالسيادة عن اختيار وطواعية، ويستشيرونهم في أمورهم المهمة، ويرجعون إلى معونتهم ورِفدهم عند الشدائد.

وهذه المقومات الأخلاقية قد تكون متوارثة في الأسر الكريمة نظرًا لأن الأولاد ينشأون على أخلاق آبائهم وأمهاتهم، وقد تتوافر في الأفراد الطموحين نحو المعالي وإن لم يكونوا من أبناء الأسر المشهورة بالمكارم.

فإذا كان ولاة الأمور من هؤلاء الذين يتمتعون بقدر عالٍ من هذه المقومات الأخلاقية فإن أحوال

الأمة – غالبًا – تسير باعتدال وأمن وسلامة، نظرًا إلى أن القائمين على الأمور لهم من رصيدهم الأخلاقي ما يمنحهم الشهرة العالية وإن لم يصلوا إلى الولاية، ولذلك فإن أقوالهم وأفعالهم تتسم بالحكمة والرزانة والعدالة.

ومن المعلوم أن تلك المقومات الأخلاقية إنما تقوم بالدرجة الأولى على الوازع الديني المبني على قوة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

فأما حينما يصل إلى الولاية من عاشوا على الحرمان والشح والحقد والتربية الهابطة فإن أعمالهم تكون صورة لماضيهم السقيم، ويقلبون موازين المجتمع، حيث يبعدون أصحاب المكارم الذين

يقدرهم الناس، ويقربون أمثالهم من الهابطين، فتسود مساوئ الأخلاق، من الشح والجشع والخيانة والرشوة، ويضطر بعض الناس إلى احترام هؤلاء والتقرب إليهم وإن كانوا يمثلون أسوأ الأخلاق لكون الدنيا بيدهم.

وفي هذا الحديث يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: فمن تأمل ما أشرنا إليه مما دل عليه هذا الحديث العظيم علم أن جميع العلوم والمعارف ترجع إلى هذا الحديث وتدخل تحته، وأن جميع العلماء منْ فِرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث وما دل عليه مجملاً ومفصلاً، فإن الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة

خصال الإسلام، ويضيفون إلى ذلك الكلام في أحكام الأموال والأبضاع والدماء، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه، ويبقى كثير من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم، ولا يتكلمون على معنى الشهادتين، وهما أصل الإسلام كله.

والذين يتكلمون في أصول الديانات يتكلمون على الشهادتين، وعلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر.

والذين يتكلمون على علم المعارف والمعاملات يتكلمون على مقام الإحسان، وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضًا، كالخشية والمحبة

والتوكل والرضا والصبر ونحو ذلك، فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فِرَقُ المسلمين في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، ففي هذا الحديث وحده كفاية ولله الحمد والمنة[١].

(١) جامع العلوم الحكم (١/ ١٣٤-١٣٥).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
حديث سؤال جبريل	٧
الأمر الأول : الإسلام	١١
أهمية أركان الإسلام	١١
التوازن في فهم أمور الإسلام	١٨
من مقاصد الشهادتين	٢٥
الحكم بما أنزل الله من أصول التوحيد	٣٥
الحكم بما أنزل الله عروة من عرى الإسلام	٤٢
الأمر الثاني : الإيمان	٤٤
الآثار التربوية للإيمان	٤٩

الإيمان بالقدر ٥٤
الأمر الثالث : الإحسان ٥٩
بيان نوعي الإحسان ٥٩
علامات الساعة ٧٠
بيان سبب الاقتصار على علامات الساعة ٧٠
الصغرى ....
بيان القول المختار في العلامة الأولى ٧١
بيان القول المختار في العلامة الثانية ٧٥
فهرس الموضوعات ٨٥